٥ . بين البصرة وبغداد

عندما انبثق النظـــام الشمسي ، آخر الامر ، من السديم الداكن او من ايما شيء آخر سبَّب العهـــدَ الجليديّ الاخير، نشأت عن المجاري التي احدثتها رُكامات الجليـــد الذائبة انهارٌ عديدة ، ولكن الفرات ودجلة والنيل اجتذبت فيما يبدو جميع من بقي من البشر على قيد الحياة في هذا الجوار الحـــار نسبياً ، واتبع الانسان وأُسرُهُ خط الجليد المنكفيء من المنطقة التي تؤلف اليوم الخليج الفارسي ودلتا النيل لينشيء مـــدن سومر ومصر ، لان تاريخ الانسانية المدوّن بدأ هناك .

والحق ان العراق، او بلاد ما بين النهرين دجلة والفرات ـ كان منذ عهوده الاولى ارض ريٍّ وقنوات . فقبل ميلاد المسيح بالفي سنة سنّ حمورابي شرائع تلقي على المواطن تبعة المحافظـــة على نظام الريّ . ففي ذلك الحين ، وطوال آلاف من السنين قبله ، انتهى العراق الى ان يصبح بلداً آهلاً بالسكان بفضل هـذا النظام البديع من القنوات والسدود . وليس يدري أحدٌ من الذي ابدع نظام الري ولا متى امسى ذلك ضرورياً . وفي فترة امعنَ في القدم طبعاً ،قبـــل ان تخرّب الفيضانات السنوية قشرة

الارض الخارجية والغابات، كانت في العراق، من غير ريب، سلسلة خصيبة من الاودية والسهول. ولكن قبل التاريخ المسطور بعهد طويل أكره الاهلون على ان يحفروا الخنادق لجر مياه النهر الى مزارعهم الظمأى لان زوال الغابات أثّر في المناخ تأثيراً سيئاً فقلت الامطار وتباعدت الفترات ما بينها. وهكذا كان العراق، منذ آلاف من السنين، صحراء يسيطر الانسان على خصبها الاصطناعي. وفي عهود الازدهار، ايام البابليين اولاً ثم ايام الخلفاء بعد ذلك، بلغ مجموع السكان في العراق نحواً من ستة عشر مليون نسمة. ولكن هولاكو خان غيّر ذلك كله.

فألى سنة ١٢٥٨ بعد الميلاد عني اهل العراق بقنواتهم وفقاً لشريعة حمورابي. وقد جاء فيها:

« ان الرجل الذي يهمل أمر العناية بسده بحيث يؤدي فتقه الى إتلاف غلات جيرانه يدفع لجيرانه ثمن ما أتلف من غلاتهم ... أما اذا لم يكن في مبسوره أن يعوض عن تلك الغلال من مخازنه فيلزم بدفع الدين الى المتضررين، وإن لم يفعل بيعت أسرته في سوق الرقيق .... »

ودارت الحياة في بابل على محور نهريها التوأمين. ولكن النهرين التوأمين كثيراً ما حملا الموت الى البلاد أيضاً. ذلك بأن بعض الفيضانات الكبرى كان يغرق الماشية والناس ويهدم المنازل والابنية. وفي فصل الربيع كانت السيول العارمة تتدفق من جبال تركية وايران وسورية، فاذا بمياه دجلة تصبّ في بعض الاحيان ستة آلاف باردة مكعبة في الثانية، في حين تصبّ مياه الفرات نحواً من أربعة آلاف باردة.

والواقع أن امثال هذه الكوارث المتعاقبة يسّرت على العلماء

دراسة احوال العراق قبل التاريخ . لان سكان بابل كانوا اذا ما رأوا الى ركام الحجارة المتهدمة التي كانت بيوتاً لهم يأوون اليها ، عمدوا الى استنقاذ ما يستطيعون من أثاث منازلهم وأدواتها وشيدوا بيوتاً جديدة من المادة نفسها فوق أنقاض المنازل الاولى . لقد نجت ارضهم ، على اية حال ، من الخراب . ومستوى البناء المرتفع قد يكفل لهم سلامة اضافية حين يقع الفيضان التالي.

وللطوفان التوراتي «الذي خرّب حياة العالم باستثناء نوح واسرته» نظائر كثيرة في جميع الحضارات المعروفة تقريباً . ولكن ثمة قليلاً من الشك في ان الرواية التوراتية يمكن ان تُردّ الى بابل . وفي العصر الحديث اثبتت الحفريات التي جرت قرب موقع المدينة القديمة أن حالةً من الفيضان كانت قد جعلت الاراضي المجاورة غير صالحة للسكنى طوال عقود عديدة . وكشفت اعمال الحفر عن التنضّد المعتاد في مستويات الابنية الى عمق ثلاثين قدماً تقريباً ، حيث وجد المنقبون بدلاً منها، على عمق احد عشر قدماً فقط ، طيناً غريلياً * . وعلى اثني عشر قدماً – او على نحو اثنين واربعين قدماً من السطح – كُشِفَ النقاب عن ابنية اخرى من ضرب يختلف اختلافاً طفيفاً ليُستأنفَ التنضّد الطبقيّ Stratification بعد ذلك . ومن هنا نرى أنه طوال مدةٍ ترسّب فيها اثنا عشر قدماً من طين النهر كانت مدن العراق مغمورة بالمياه .

وفي ذلك الحين كانت بابل تعرف عند السكان باسم كادينجيرا

---

* يراد بالغريل ، في الجيولوجيا ، الطين او الحصى او الحجارة او غيرها مما تجرفه السيول او الانهار . وتطلق اللفظة غالباً على المواد التي رسبت من المياه العذبة في الاطوار الجيولوجية الحديثة . [المعرب]

Ka Dingirra ، وعند ساميي شبه الجزيرة العربية باسم «باب إيل» وكلا الاسمين معناه « باب الله » .

وظلت بابل هيكلاً لآلهتها الى ما بعد خراب المدينة نفسها بزمن طويل . وعلى نقيض بغداد ، لم تدمّر بابل بأيدي فاتحيها من الفرس والاغريق . فقد استسلمت في وداعة لداريوس الكبير واحتلها جيش الاسكندر بعد انتصاره في أربيلا * وكان الاسكندر قد أقنع نفسه ، آنذاك ، بأن كاهن زيوس – آمون المصري على صواب ، وأعلن نفسه إلـهاً . ولكن وفاته بعد بضع سنوات بالملاريا او بذات الجنب او بالسمّ ادت الى زوال آلهة بابل . إذ أهملت منذ ذلك الحين هياكلها ونُهِبَ آجرّ الابنية والقصور لبناء قصور الملوك السلوقيين الذين خلفوه . ويقال ان مدينة الحلة ، قرب بابل ، بُنيت كلها من الآجرّ البابلي .

فاذا انتقلنا من الفرات الى دجلة وجدنا خرائب المدائن في « سلمان باك » قرب بغداد ، ولكنها دون بابل روعة وعظمة . والواقع أن قاعة الملوك السلوقيين الكبرى بقوسها الفخم العجيب هي كل ما تبقّى باستثناء الخرائب القائمة تحت سطح الأرض . وتقيم الحكومة العراقية حرساً حول القاعة الكبرى . ويتغنّى عزفو الكمان العرب ، المكفوفو البصر ، بالروائع السالفة . ولكن بابل كانت قد بلغت نهايتها حتى قبل عهد الاسكندر ، ليرتقي العراق قمة المجد من جديد بانطلاق الاسلام من شبه الجزيرة العربية .

---

* قرب نينوى حيث هزم الاسكندر جيوش داريوس الثالث عام ٣٣١ ق. م. [المعرب]

ولد محمد عـــام ٥٧٠ أو ٥٧١ ب. م. فلم ينتصف القرن السابع حتى نفذ الاسلام الى كل زاوية في شبه الجزيرة العربية. ولم ينتصف القرن الثامن حتى نفذ الى طول العالم المعروف آنذاك وعرضه، ما خلا غابات الروسيا والجزر البريطانية. لقد امتد من سمرقند والبادية السورية ومدن النيل الى سهول فرنسة الجنوبيـة وكثبان اسبانية ومراكش. وفي ما بعـد حُملت كلمة القرآن، عبرَ الهند، الى بلاد الصين والفليبين، بل الى جزر التوابـــل في الارخبيل الهندونيسي.

ولكن حين بدأ اتباع الرسول يختلفون في شؤون المعتقد والتفسير، كانت الخلافة قد انتقلت الى بغـداد. وكانت بغداد خربةً آنذاك، فينبغي ان يُجدَّد بناؤها. وعندما عـيّن الخليفة المنصور موقع مدينته قرب ملتقى نهري دجلة وديالى كان يُعيد في الواقع تشييد مدينة عُرفت باسم «بغدادو» منذ الفين وخمسمئة سنة أو يزيد. وهكذا غدت بغداد الجديدة عاصمـة العالم المتمدن وقُدِّر لها أن تسيطر على الاسلام طوال خمسة قرون.

وما هي الا فترة حتى انشئت مدارس للكيمياء وغيرها من العلوم، وبلغ الطب أوجه في جامعات بغداد. وشيدت المستنصرية، وهي أول جامعة غير مذهبية في التاريخ، على بضع مئة ياردة من قصر الخليفة. ولا تزال جدرانها قائمة — برغم وضعها الخرب — وكأنها تشهد على ما كان فيها من غرف تدريس ومنامة وما اتبع فيها من اصول في تنظيم مكتبات المطالعة تكاد تكون عصرية. وكانت ابنية الجامعة تنتظم، الى ذلك، صيدلية مجانية وحمّامات

ومطعماً واسع الأرجاء. وفي عهد هارون الرشيد (٧٨٦-٨٠٩) وابنه المأمون (٨١٣ — ٨٣٣) بلغ العلم الاسلامي مرتبة رفيعة كان من ثمراتها ان غدت الكيمياء علماً وكانت من قبل فناً من الفنون. ويعود معظم الفضل في تطوير الكيمياء على هذا النحو الى جابر بن حيّان المحفوظة كتبُه اليوم في المتحف البريطاني. ولقد كتب هذا العالم المسلم الذي دعي بحق جابراً (المصلح والمنظم) كتباً باقية يؤذن بعضها، في كثير من الوضوح، بأنه فهم طبيعة العالم الذرّية. قال* :

« حين يتحد الزئبق والكبريت ليشكلا مادة مفردة يحسب الناس انهما تغيرا تغيراً اساسياً وان مادة جديدة بالكلية قد تشكلت. ولكن الواقع غير ذلك. فكل من الزئبق والكبريت يحتفظ بطبيعته الخاصة — وكل ما يحصل هو ان اجزاءهما قد أضعفت واقترب بعضها الى بعض اقتراباً شديداً حتى لتظن العين انهما قد شكلا مادة جديدة. ولكن لو استطاع المرء ان يوجد أداة تفصل ما بين هذه الاجزاء اذن لظهر له ان كلا من الزئبق والكبريت قد احتفظ بشكله الطبيعي الدائم، فلم يتحول أو يتغير. » **

والى جانب جابر هناك ابن سينا (ارسطو الطب) والكيميائيون الكبار الرازي والمجريطي والعراقي وغيرهم. وانتقلت الثقافة العربية الى اوروبة من طريق الاندلس حيث انشئت جامعات إسلامية اخرى. ولكن الايمان الشعبيّ بالسحر والعرافة — هذا الايمان الذي جعل العلوم الاوروبية وحشيةً غير إنسانية الى ما قبل ثلاثمئة عام تقريباً — حال دون الافادة من هذه الثقافة الا على ايدي اصحاب الكيمياء

* اضطررنا الى ترجمة الكلام عن الانكليزية لتعذر اهتدائنا اليه في الأصل العربي. [المعرب]

** Chemistry to Dalton, Holmyard. Oxford University Press.

القديمة وصناعة التنجيم الذين تكتنفهم الاسرار .

ولكن المغول استولوا على بغداد عام ١٢٥٨ ، فعرفت الديار الاسلامية منذ ذلك الحين عهداً من الانحـــلال انتهى بالسيطرة التركية . وخضع العرب وثقافتهم الرفيعة الحساسة لسلطان الاتراك الأميين القاسي .

وفي هذا القدر من الكلام على التاريخ القديم كفاية . ولكن ليس في ميسور احد ان يفهم العرب ووجهات نظرهم من غير ان يعرف هذا الاساس التاريخيّ ، لان العرب لم يتغيّروا الا قليلاً في اربعة قرون ، ليعودوا من جديد الى المسرح السياسي وعظمة ماضيهم العريق لا تزال ماثلةً امام اعينهم . وحتى هنا ، في لحظة البعث ، جوبهوا بالخيانة المتمثلة باتفاقية سايكس بيكو وانتدابها ، واخيراً بإدخال اليهود الاوروبيين ، عنوةً ، الى فلسطين وإخراج العرب منها .

وايّاً ما كان فهذه البلاد التي كانت في يوم مضى مهداً للغرب وللشرق الاوسط معاً — ارض الفجر هذه هي اليوم بلدٌ عصري صاخب تضج في جنباته دندنة الحياة الحديثة . ففي بغداد ، مدينة المساجد ، اتخذ الأذان مظهر عصرياً الى ابعد الحدود . فبدلاً من المؤذن المنعكس خياله الداكن على رخام المئذنة اللامع ينبعث النداء الموسيقي القيثاري ، اليوم ، من امام ميكروفون قائم تحت سطح الشارع فاذا بمآذن المساجد جميعاً ، وليس يقلّ عددها عن الخمسين ، تردّد أذاناً واحداً ليس غير !

وفي محـاذاة شطّ العرب الاسمر تابعت الـ « سيلفر ستار »

ادفع دولاراً (٧)

اجتياز المرحلة الاخيرة، في ما يتصل بي على الاقل ، من هدفها . والى يمين النهر العريض تقع ايران ، وغياض النخيل. والى يسار النهر يقع العراق وغياض النخيل ايضاً .

واتخذت الـ « سيلفرستار » سبيلهـــا المهيب بين صفوفٍ من النخلات الداكنة الخضرة ، الفارعة الطول ، منسّقةٍ تنسيقاً دقيقاً ومنبثقة من التربة السمراء القائمة على ضفتي النهر . لقد بدا وكأن تلك الغياض لا نهاية لها ، فهي تمتد الى الافق العريض وتنحلّ الى كتلة جامدة من خضرة في وجه غمام الصباح الازرق .

ولكن شط العرب كان يفور بالنشاط . فنـــاقلات الزيت المنتسبة الى الدول على اختلافهـــا تجري في صف واحدٍ متثاقل سواء مـــع التيار او ضده . اما حركة النقل المحلية فتمثلت او كادت في نشاط السفن العراقيـــة . ومن عجب ان عيني لم تقع، هناك، على ايما سفينة ايرانية في ذلك اليوم الاخير من عام ١٩٤٨ .

وفيما نحن على منتصف الطريق الى البصرة تقـــدم منا زورق الحجر الصحي العراقي ، وانبثق منه طبيب راح يقابل الربابنـــة والمسافرين قبل أن يتصل بالملاحين . وههنا أوجستُ خيفةً . ذلك بأنّ برنامج « منظمة الصحة العالمية » القاضي بأن يحمل المسافرون نوائح موحدة تؤذن بأنهم ملقحون ضد مختلف الأمراض لم يخرج الى حيز الوجود الا حديثاً ، ولم اكن املك مثل تلك الاوراق. وتلك كانت غلطتي أنا ، لا غلطة أحد سواي ، لأن شركة النقـل لفتت نظري الى ذلك قبل إبحـــار السفينة ، ولكني لم ألقِ بالاً لتحذيرها . لقد ترحلتُ كثيراً فعلمتني الاسفار ان المحاجر الصحية

في جميع البلدان تؤكد اكثر ما تؤكد على التلقيح ضد الجدري. ومن هنا قلتُ لنفسي إنني اذا حصلت على شهادة تلقيح حقيقية ضد هذا الوباء أمنت المتاعب كلها .

وقبل سفري بيومين وفد عليّ صديق وأعلمني ان الرحلة التي كنت على وشك القيام بهـــا تقتضي تطبيق كتاب الطب الوقائي كله . اذ يتعين عليّ ، نزولاً عند ارادة منظمـــة الصحة العالمية ، ان أتلقح ضد التيفوئيد والباراتيفوئيد، والحمى الصفراء ، والكوليرا، والزحار (ديزنطاريا) وغيرها .

ووطنت النفس ، على تجاهل هذه المسألة برمّتها لعدة اسباب : اولها ان وقتي ما كان يتسع لذلك كله — وهو يستغرق نحواً من ثلاثة اسابيع — ولم يكن يفصلني عن موعد الرحيـــل غير ثمانٍ واربعين ساعة . وثانيها اني ما كنت اريد ان أُثقل على كبدي بهذه الحقن كلها .

وهكذا تلقحتُ ضد الجدري وحصلتُ (بطريقة ملتوية) على ورقة من تلك التي يسجل عليها الاطباء وَصفاتهم . وكتبت عليها مايفيد اني تلقحت ضد مختلف الامراض السارية التي تخطر لامرىء ببال، وان شيئاً لايستطيع ان يؤذيني بعد اليوم الا من طريق واحدة: رغبة الانسان او القانون في الايذاء ، وقد وُقعت هذه الوثيقة بسلسلة من الخطوط المنمقة التي لاتحل رموزها ثم طُويت لتنشر في ساعة الحرج. حتى اذا اقبل طبيب المرفأ استشعرتُ ان ساعة الحرج هذه قد حانت . ولم يكن أحدٌ قد ازعجني قبـــل ذلك ، ما عدا طبيب المرفأ في الاسكندرية الذي ألقى على الشهادة المؤذنة

بتلقحي ضد مختلف الامراض السارية نظرةً تمور بالريبة قبل ان يأذن لدمائي غير الملقحة بالنزول الى المدينة .

ولم تكن المقابلة طويلة . فقد سألني الطبيب – وهو رجلٌ بدينٌ قصير القامة ذو وجه بشوش – أن اجلس ليمضي هو في مهمته . وكانت انكليزيته ممتازة . فتناول شهادتي التلقيحية ودوّن ملاحظة حولها في اوراقه . ثم وجه اليّ السؤال الذي توقعته : هل احمل شهادة تلقيحية من شهادات منظمة الصحة العالمية ؟ فأقررتُ بأني لا افعل ، فاكفهرّ وجهه ، وقال ان الاوامر الصادرة اليه تقضي بأن يحمل جميع زائري العراق شهادات تلقيح ، فأجبته قائلاً : اذا كانت المسألة قاصرة على ذلك ففي استطاعتي ان أقدّم شهادة بهذا المعنى . قلت ذلك واخرجت شهادتي المطوية .

وتناول الطبيب تلك الورقة ، فأخذه الذهول بعض الشيء ، وحدجني بنظرة خاطفة ، ثم استأنف قراءتها . حتى اذا تمّ له ذلك رفع عينيه نحوي كرةً أخرى وارتعش فمه ارتعاشاً طفيفاً وهو يغمغم :

« تدري ، قد تكون هذه الشهادة كافية حقاً ...» والقى نظرةً أخرى تكاد تؤشح بالاجلال ، على تدبيري الملفق ذاك ، « ولكنك اول رجل في العراق لا تترك طهارته المشهود بها عملاً ما للصناعة الطبية ... من اجل ذلك أدعك ، ياصديقي ، للرجل الذي زوّدك بهذا الاعتراف ! »

ونهض الطبيب عن كرسيه ، وانحنى في احترام ، وأومأ بيده الى

الباب . فخرجت حاملاً اوراقي معي .

ولم أحتج اليها بعد ذلك قط ، ذلك بأن احـــداً في الشرق الاوسط لم يتكشّف عن اهتمام بالغ بأمر تلقّحي ضد الأوبئـة ، منذ ذلك الحين . وبسبب من هذا ألقيت شهادتي المزورة في عرض البحر ، بعد بضعة اشهر ، بين بيروت واثينا !

●

وصلنا الى البصرة عشية العام الجديد ، فدعانا القنصل الاميركي الى النادي المحلي فيها . كانت سهرة ماتعة حفلت بالغناء وبالويسكي الاسكتلندية . ورقص القوم شيئاً ما ، حتى اذا وفد القنصـــل السعودي العام ، وهو رجلٌ مهيب يرتدي عبـاءة سوداء مذهبـة الحواشي ويعتمر كوفية بيضاء ، ذكرتُ أني نصحتُ بأن ابدي له رغبتي في الحصول على سمة الى المملكة السعودية . فلقبني القنصل بأعظم الكياسة ، ولكنه رفض مطلبي في لطف بالغ أنساني المسألة كلها . صحيح اني كنت أتوقع الرفض ، ولكني ما كنت أحسب أني سأقع عليه مصوغاً في هذا القالب اللفظي الفاتن . حتى لقـــد وجـــدتني آخر الأمر مضطراً الى إزجاء الشكر الى القنصـــل والانسحاب في تلطّف واحترام .

ووفد بعد ذلك حاكم المنطقة العسكريّ . وهو عراقي قريب الى النفس يجيد الكلام بالانكليزية ويتمتع بمعرفة تاريخية غزيرة . وكان يحزّ في نفس حمدي بك — وهذا هو اسمه — امرانْ : تطور الحرب الفلسطينية في غير صالح العرب ، وذلك الصقيع غـــير الاعتيادي الذي عرفه العراق آنذاك والذي أتلف حديقة وروده

اتلافاً كاملا . وبرغم حزنه هذا ،دعاني الحاكم العسكري ، ودعا روس غارلين ، احد موظفي شركة الطيران عبر العالم (T. W. A) ، الى غداء ممتاز في اليوم التالي. لقد وصف لنا القتال في فلسطين وتفرق كلمة الدول العربية بعد الهدنة الأولى ، فلم تكن الصورة زاهية على الاطلاق . ثم استطرد الى القول إن الحلم الجميل الذي راود العرب بعد هزيمة ألمانية واليابان قد تبدد الآن بالكلية . وبعد خيانة فرنسة وبريطانية للأمة العربية فتح العرب اعينهم على خيانة جديدة من جانب الولايات المتحدة الاميركية . لقد بدا للعرب، وقد بُعثوا من جديد بعد غياب طويل عن المسرح السياسي ، انهم لا يلقون غير خصوم يناصبونهم العداء، واصدقاء يخونونهم في الخفاء.

وكان روس غارلين وامرأتان اميركيتان من القاهرة كلّف برعايتهما ، قاصدين الى بغداد في القطار الذي اعتزمتُ ان استقله الى العاصمة العراقية . فسعدتُ برفقتهم . وبفضلٍ من حسن وفادة مضيفنا وعناية شركة الطيران عبر العالم T. W. A وفقنا الى الحصول على زجاجة أو زجاجتين من الويسكي . وحين قدّم اليّ حمدي بك سلة من الفاكهة أستعين بها على الرحلة الطويلة شعرنا بأننا زُوِّدنا خيرَ زاد .

والمسافة بين البصرة وبغداد تبلغ نحواً من اربعمئة ميل بالسكة الحديدية . ويمرّ القطار في طريقه ذاك بأور وبابل، ولكنه يجوزهما تحت جنح الظلام فليس في ميسورنا أن نرى شيئاً . وفي الساعة الثالثة بعد الظهر غادرنا مضيفنا وسط حديقته الوردية التي أهلكها الصقيع وامتطينا متن سيارة عمومية الى المحطة حيث التقينا

« الأمانتين » الموكولتين الى غارلين ، وهما سيدتان فاتنتان في ربيع العمر يعمل زوجاهما في مكاتب «شركة الطيران عبر العالم» في القاهرة . وكانتا في ما يبدو تنفقان اجازتهما في سياحة تقومان بها في العراق وايران ، على أن تغادرا بغداد ، بعدُ ، الى طهران بالطائرة . ذلك بأن مطار بغداد لم يكن بقادر على استقبال الطيارات ذات المحركات الأربعة في سهولة ويسر . صحيحٌ ان المطار شهد بعد ذلك إصلاحات غدت تمكّنه من استقبال الطائرات من مختلف الحجوم ، ولكن شيئاً من هذا لم يكن قد تمّ عام ١٩٤٩ .

وكانت إدارة السكة الحديدية تسيّر بين مدينتي العراق الرئيسيتين قطاراً مكيّف الهواء مرةً او مرتين في الأسبوع . ولم نكن قد أحسنّا اختيار اليوم . وأياً ما كان ففي الساعة الرابعة تماماً اقبل القطار ، وبعد خمس دقائق انطلق بركابه المستريحين ، قليلًا او كثيراً ، في حافلات الدرجة الاولى ذات الاركان التي يتسع كل منها لاربعة مسافرين . واقتسمتُ انا وروس ركناً ، في حين استقلت السيدتان بركن آخر غير بعيد عنا . وفي الوقت نفسه لم يكن ثمة ما يحول بيننا وبين المشاركة في احتساء الويسكي والاستمتاع بالفاكهة في ركن واحد . وهكذا فعلنا .

وقدمت الى كل منا ثلاث قسائم لوجبات ثلاث من الطعام . وكان طعام العشاء سائغاً ولكنه غير مثير : سمك مشويّ ، ولحم ضأن ، وسلطة ، وحلوى ، وقهوة . ثم ويسكي وفاكهة . وكانت عربة الطعام باردة فلم تكد الزجاجة تفرغ حتى انفضّ

السّامر .

وأحسب ان الساعة كانت الثانية عندما شرعت القشعريرة تنفذ الى عظامي . لقد انفقتُ الهزيع الاول من الليل أكحل الطرف بضوء القمر الذي يغمر الصحراء الرملية الواقعة ما بين البصرة وبغداد . واخيراً ، حوالى منتصف الليل ، استرخيت في فراشي الوثير ، ذي البطانية المزدوجة ، واستسلمت للرقاد . ولكن القشعريرة غلبت عليّ ، فنهضت من نومي مرتعش الأوصال . وكان الفراشان المخفوضان يستغرقان المجال كله ، حتى اذا حاولت أن أتلمس معطفي – وهو شيء ثقيل من صوف انكليزي كثيف – لم أهتدِ إليه . فما كان مني إلا أن غطيتُ جسدي المقرور بمطر روس وبجميع الملابس التي نزعتُها قبل أن ألبس البيجاما . وكان الضوء المعتم فوق رأسينا غير مسعفٍ البتة . وكان مفتاح النور العادي قد أُخفي في براعة وتأنق . وعند الصباح – الصباح القارس اللاذع – أفقتُ من سباتي لأجد أن روس قد اكتشف موضع المعطف ، وأنه لا يزال نائماً تحته في دفء ورفهٍ يثيران الحسد !

وفي الميقات الموعود بلغنا بغداد ، وامتطينا سيارة أجرة عبرت بنا النهر الى المدينة القديمة حيث يقوم « أوتيل سندباد » في شارع الرشيد . ولقد حُدّثت في الكويت عن اوتيل سندباد هذا ، فرغبت في النزول فيه . إنه لم يكن خير فنادق بغداد ، ولكنه بعيدٌ عن ان يكون اسوأها . ولعل مطعمه خير مطاعم العاصمة العراقية كلها . وأياً ما كان ، فقد وجدوا لي غرفةً ونزعوا أصابع الجليد المستدقة المتدلية من أنابيب الماء في الحمام ، وجاءوا بأربع مدافئ

لمساعدة الحرارة الضعيفة المنبعثة من جهاز التدفئة المركزية . كان ذلك الشتاء أقسى شتاء شهدته البلاد منذ خمسين عاماً . فقد هبطت الحرارة في بغداد الى نحو من خمس درجات فوق الصفر بمقياس فهرنهايت .* وعلى أية حال ، فهأنذا في بغداد ، نزلة أخرى ، ولشدّ ما تغيّرت بغداد عما كانت عليه في آب ١٩٢٨ !

* ان الدرجة ٣٢ فوق الصفر في مقياس فهرنهايت تعادل درجة الصفر في مقياس سنتيغراد . [المعرب]

obeikandl.com